

## الفروسية العربية

هل كان لدى العرب فروسية على نمط الفروسية الغربية ، وبعبارة أخرى هل كانت لديهم هيئة اجتماعية منظمة ذات قواعد وقوانين وطقوس خاصة تهدف إلى غاية محددة ؟ ومتى كان قيام تلك الهيئة ؟ أكان سابقاً لتأسيس الفروسية الأوروبية أم لاحقاً لها ؟ لقد اعتمد « هامر بورجستال » في دراسة علمية نشرتها « الصحيفة الآسيوية »<sup>(١)</sup> له في هذا الصدد — على ذلك الأثر الذي يحكي استبسال على بن أبي طالب عقب غزوة أحد ونصه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » فاستدل به على أن الفروسية كانت معروفة قبل محمد<sup>(٢)</sup> . وقد بنى « هامر » استدلاله هذا على ترجمته لفظه « فتى » بكلمة « فارس » . والحق أن كلمة « فتى » تعني بطلا كبير القلب شديد البأس ، ولم تصبح مرادفة لكلمة « فارس » إلا بعد انقضاء زمان طويل ، أي نحو القرن الثاني عشر ، حينما عرف الشرق الفروسية ؛ وهكذا أخطأ « هامر » في الصعود بالفروسية العربية إلى ما قبل القرن السابع .

---

(١) الصحيفة الآسيوية (Journal Asiatique) مجموعة سنوات ١٨٤٩ - ١٨٥٥ ، مقالات Hammer Purgstall عن « فروسية العرب السابقة لفروسية أوربا وأثر الأولى والثانية » .  
(٢) كانت الفروسية موجودة قبل الإسلام ، لاشك في ذلك . ولكن هذا الاستدلال خاطئ لأن واقعة أحد كانت في أيام النبي . (تحقيق)

ويؤرخ « فوريل » أقدم آثار الفروسية الاجتماعية والفروسية الدينية بما نجده لدى عرب الأندلس ، فهو يقول: « يرجع فرسان المعبد (Chevaliers du Temple) وفرسان « ملجأ بيت المقدس » (Hôpital de Jérusalem) — وهم الذين يمكن أن يعتبروا أشد أتباع الفروسية الدينية ورعا ونظاما — إلى أوائل القرن الثاني عشر (نحو سنة ١١١٥) . وقد عرف أهل القرن السابق من عرب الأندلس هيئات من الشرطة الدينية نظمت لأداء نفس الغرض وبطريقة مماثلة ، وأطلقوا عليها اسم «الرابطين»<sup>(١)</sup> وأما الفروسية الاجتماعية ، فمن المحقق أيضاً أنه قد كان لدى العرب منظمة ما من هذا القبيل وهي التي اتخذت فيما بعد نموذجاً ولا شك»<sup>(٢)</sup> .

وتعتمد حجة « فوريل » فيما يتعلق بالفروسية الدينية على ملاحظة صاغها « كوند » (Condé) في هذه العبارات : « كانت حياة المسلمين «الرابطين» أى خفر الحدود ، حياة شظف ؛ فقد كانوا يقفون أنفسهم طواعية للتدريب المتصل على الأسلحة ، وكانوا يؤدون فرضاً تعهدوا بأدائه ، هو الذود عن حدودهم ضد المقاتلين المسيحيين. لقد كانوا صفوة الفرسان ، وذوى جلد كبير وقدرة على احتمال المكاره ، وما كانوا ليركضوا إلى الفرار أبداً ، بل لقد ألزموا أنفسهم القتال والاستبسال حتى الموت دون أن يغادروا مواقعهم . ومن المحتمل أن تكون قد تشكلت على مثال هؤلاء

(١) فوريل تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فوريل : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

الرابطين - في أسبانيا وبين مسيحي المشرق - تلك المنظمات الحربية التي اشتهرت بشجاعتها وبالخدمات التي قدمتها للمسيحية . فهناك تشابه كبير بين المنظمين « . وفضلا عما ينبغي من عدم الاعتداد كثيرا بكلام « كوند » ، فإن هذا النص الوحيد الذي اعتمد عليه « فوريل » لا يثبتنا بشئ عن تنصيب فرسان « الرابطين » ولا عن تشكيل جماعتهم ، فلا يمكن إذن أن يقوم دليلا على أن فرسان « المعبد » و « الملجأ » قد تشكلوا على هيئة جماعة الرابطين . بل إن أقصى ما يمكن أن يدلنا عليه حديث كوند هو القول بإمكان قيام منظمات معينة في عصور معينة لدى شعوب مختلفة كلما تشابهت الظروف .

وأما فيما يختص بالفروسية الاجتماعية فإن فوريل لا يتحدث عن وجودها إلا على أساس من الاحتمالات قائلا « لعلها وجدت ، بل لا بد أن تكون قد وجدت » . أجل ، لقد وجدت لكن في الأخلاق والعواطف ، لا على شكل منظمة .

على أن هناك - فيما كتبه الأدباء العرب - ذكرا لفروسية منظمة ، تتضمن حفل تنصيب رسمي يقام باسم الأمير أو باسم الزعيم الديني ، كما تتضمن ولائم وألعابا وأفراحا . وأما لباس الفارس ، أو « الفتي » ، فيتألف من قميص وسروال « هورمز التفوق » . وتتخصص امتيازات أولئك الفتيّة على سواهم في حق « إطلاق الرصاص وصيد الحمام الأصيل » (١) .

(١) انظر تاريخ أبو الفدا سني ٥٦٨ و ٦٢٣ ، تاريخ الحرب الصليبية . عهد =

أفهمه هي الفروسية العربية التي اقتدت بها الفروسية الغربية ؟ ولكنها لا ترجع إلا إلى تاريخ القرن الثاني عشر ، حيث ورد ذكرها للمرة الأولى في مقام الحديث عن الملك الناصر ( ١١٨٠ - ١٢٢٥ ) . هذا إلى أن عادة « شرب نخب الخليفة في كأس الفروسية »<sup>(١)</sup> عند تنصيب الفارس الجديد ، تقليد ينم عن أصل أوروبي للمنظمة ؛ فقد كانوا في الشرق لا يشربون إلا الماء ، ويشربونه بطريقة أقل احتفاء ورمزا . . . صحيح أن المؤرخين العرب في العصور الوسطى يرجعون بأسس فروسيتهم إلى الخليفة علي بن أبي طالب ؛ إذ قرأ في « عمدة الطالب » أن امتياز منح مرتبة الفروسية قد انتقل رأساً من الخليفة علي إلى « سلمان الفارسي » ، ومن بعده ، خلال آخرين ، إلى « أبي مسلم » وهكذا . . . وكانت الرسائل التي يوجهها السلاطين إلى الأمراء الأجانب تشير إلى ذلك الأصل الرفيع ، في مثل قولهم « من السلطان الذي ورث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شرف الفروسية ومجد النسب العريق ... »<sup>(٢)</sup> ولكن لا ينبغي

---

= الناصر لدين الله . وراجع عدة مؤلفين ذكرهم « دوزي » ، قاموس أسماء الملابس عند العرب ص ٣٩٩ ولكاتمبر (Quatremère) ترجمة المقرئزي ، التعليقات الواردة ص ٥٨ ، ٥٩ .

( ١ ) راجع مقالات « بورجستال » المذكورة .

( ٢ ) انظر في ترجمة كاتمبر للمقرئزي التعليقات الواردة في ص ٥٨ . ويذكر « مفضل بن أبي الفضائل » أن امتياز منح الفروسية قد انتقل من علي إلى سلمان الفارسي إلى علي التورفي إلى الحافظ الكندي إلى « عوف النساني إلى أبي الإزبان النقيب إلى أبي مسلم الخراساني إلى هلال النهاني إلى جشم الفزاري ، إلى الأمير حسن ، إلى أبي الفضل القرشي ، =

أن نفسر هذه الإشارة بأكثر من رغبة المعاصرين ورغبة خلفهم في أن يحيطوا تلك المنظمة الحديدية بهالة من الجلال والعظمة ، فإن نسبتها إلى أصل قديم إسلامي مجيد إنما يضمن عليها في أعين الجميع قدراً أسمى ومظهراً أسمى . إلا أننا في الواقع لا نجد وثيقة واحدة — فيما نعلم — تذكر منظمة للفروسية قبل القرن الثاني عشر . ولسنا نقف في كتابات الشعراء والناثرين القدامى على أي أثر لمنظمة فرسانية ما ، ولو قد وجدت—ولو زمنًا يسيرًا — لكانت خليقة بأن تجتذب انتباههم وأن تغذي إنتاجهم الأدبي . على أننا ينبغي أن نلاحظ أن الصوفيين — لنحو مائة عام<sup>(١)</sup> قبل تأسيس الفروسية العربية — قد درجوا على استخدام لفظي « الفتي » و « الفتوة » في كتاباتهم ، لا بمعنى « المقاتل » فقط — وهو المعنى الجارى حتى ذلك الحين — ولا بالمعنى الفرسانى أيضاً — وهو الذى أضافه الملك الناصر إلى لفظ « الفتوة » — بل بمعنى آخر . يقول محي الدين بن العربي<sup>(٢)</sup>

إلى قائد شيل أبي المكارم ، إلى فضل الرقاشى ، إلى أبي الحسن نجار ، إلى الملك أبي القاننجان ، إلى روزبة الفارسى . . . إلى المزمز . . . إلى عبد الجبار ، إلى الخليفة الناصر . . .

راجع في *Patrologia Orientalis* ، الجزء الثالث ، تاريخ السلاطين الماليك لفضل ابن أبي الفضائل ، النص العربى الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية لـ . بلوشيه (E. Blochet) ص ٤٢٦ و ٤٢٧ .

(١) انظر في كشف الظنون: كتاب الفتوة للشيخ عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٣ وفضل الفتيان الخ .

(٢) محي الدين بن العربي : الفتوة المكية . مخطوط بدار الكتب بباريس رقم ١٣٣٦ الفصل ٤٢ ، ورقة ٧٨ « في معرفة الفتوة والفتيان » .

( ٥٦٠ - ٦٣٨ هـ . ) إن « الفتوة » من عمر الإنسان هي الفترة الواقعة بين الثامنة عشرة والأربعين ، وفيها تكتمل قوة المرء وصفاته الكريمة ، وإن « الفتى » يستخدم قوته في سبيل الله وفي نصرة الضعيف ، عافياً عن أعدائه ، موفياً بعهوده ، زاهداً فيما قد يكون له من حقوق خاصة ، وإنه لرجل يكثر حساده ولكن لا يعاديه أحد . . ولقد كان « إبراهيم » فتى ، فما تردد في تحطيم الأصنام ليقوض الباطل ويقم الحق .

ولسنا نتصدى هنا لشرح مذهب الصوفية ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن المتصوفة المسلمين قد أنشأوا منذ القرن الحادى عشر هيئة ذات قواعد صارمة وزى خاص هو رداء من صوف - ومنه كان تلقيهم بالصوفية - أسموه « لباس الفتوة » .

ولقد أورد الغزالي ( المتوفى سنة ٥٠٥ هـ . ) ما قيل عن أصل الفتوة وما يرمز إليه لباس الصوفية ، فيما أثبتته من أن الصادقين قالوا إن الفتوة شعاعة من النبوة واستدل على ذلك بحديث أسند للنبي صلى الله عليه وسلم نحيل القارئ عليه في كتاب الغزالي (١) .

ومن المحتمل أن يكون مستشارو الناصر قد طبقوا هذا المذهب على

---

(١) الغزالي : انظر المخطوطة رقم ١٣٣١ بدار الكتب بباريس ، ظهر الورقة رقم ١٧٧ . والغزالي اسم كاتبين أخوين صوفيين ، أشهرهما الأكبر محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، وأما أصغرهما فقد توفى سنة ٥٢٠ هـ ، وقد يكون الكتاب المذكور من مؤلفات أحمد ، ما لم يكن منحولاً .

هيئة الفرسان ؛ فقد استعاروا على أى حال من الصوفية لفظى « الفتى » و « الفتوة » وفكرة الكساء الرمزي « لباس الفتوة » ، والقائمة التاريخية لأصحاب « الفتوة » . وتم هذه الاستعارات عن إرادة معقودة على إحداث خلط بين جماعة دينية قديمة قد ذاع صيتها ، وبين منظمة حربية حديثة كانت تقيصتها الأصلية أنها منقولة عن مثال أجنبي . لذلك يجب أن نحذر من الاعتماد على كتابات الصوفيين — وهى ذات غرض آخر — فى البحث عن أصل للفروسية العربية أقدم من عصر الملك الناصر . وما كان لنظام الفروسية العربية أن يصبح مثالا للفروسية الأوربية ، لأنه لا يرجع على وجه التأكيد إلا إلى أواخر القرن الثانى عشر .

ونعتقد أن العرب لم يستطيعوا وما كانوا يستطيعوا أن ينشئوا من تلقاء أنفسهم منظمة للفروسية . وفيهم إنشاء فروسية دينية والإسلام نفسه يمكن اعتباره حكومة إلهية واسعة ، ومنظمة للفروسية شاحنة ، على رأسها سيد كبير هو الخليفة ، وتحت إمرته ألوف من الفرسان يقاتلون فى سبيل الله وإعلاء كلمته<sup>(١)</sup> ؟ وفيهم إنشاء فروسية اجتماعية ؟ ألم يكن العرب فرسانا على السليقة ؟ وكيف يمكن أن نتصور وجود منظمة ذات امتيازات لديهم ونحن نعلم أن العرب كانوا ينكرون الفروق الاجتماعية ولم يعرفوا يوما الامتيازات أو الألقاب ؟ لقد منعهم حرصهم على حريتهم من سن قانون يشكل الحياة ويخضعون له ؛ وكان رجال القبيلة الواحدة « إخوة » ،

(١) انظر فرنسيس شام (F. Charnes) : الجامة الإسلامية ص ١٥٤ .

فما حاجتهم بعد ذلك إلى الارتباط بعهود ومراسيم دينية ؟  
على أن ذلك لا يعني أن الأحلاف لم تعرض في حياة العرب ، بل  
كانت توجد لسبب خاص ولزمن محدد ، وآية ذلك حلف الفضول  
وخلاصته « أن هاشما وزهرة وتيما دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا  
بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم فلا يتركون عنا. أحد فضلا يظلمه  
أحدا إلا أخذوه له منه » (١) وكان ذلك في عام ٥٨٠ .

ومهما تكن مروءة الغرض الذي ابتغاه « حلف الفضول » ، فإنه  
لا سبيل إلى مقارنة جماعته بمنظمات الفروسية ، ولا إلى إطلاق نعت الفرسان  
— فضلا عن ذلك — على أتباع تلك المذاهب وتلك الجمعيات السرية التي  
انتشرت منذ أوائل عصر الإسلام ومزجت بين أطماع السياسة وتعاليم الدين .  
وعلى ذلك فإنه يصبح من المقرر إذن أن الفروسية العربية لم تتخذ —  
قبل القرن الثاني عشر — شكل منظمة ، كالفروسية الأوربية ؛ وإن  
كانت موجودة بالفعل في أخلاق القوم منذ أقدم العصور . لقد سبقت  
المنظمة الأخلاق في أوروبا ، على حين لم تظهر المنظمة لدى العرب  
إلا متأخرة ، وذلك عندما أخذت عواطف المروءة في الضعف . ويبدو  
أن تبادلا في الأفكار والعواطف قد تم في القرن الثاني عشر بين الشرق  
والغرب : فقدم الغرب الهيكل أي النظام الذي كان خليقا بأن يسند

---

(١) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ج ٤ ص ٣١ .

تقاليد العرب النبيلة ، وقدم الشرق مقابل ذلك حضارة مرهفة ، وفهما عميقا رقيقا للفضيلة ، فأزهرت بذلك أبهة الفروسية الأوروبية .

• • •

والآن فلنحاول الكشف عن أصل فروسية العرب و منبع مروءة البدو . وسنجد أن ذلك هو طبيعة البيئة و فطرة القوم . لقد ألحت على العربي حاجات العيش في بيئة شديدة الجذب فدفعته إلى النشاط والبراعة والجرأة . ولم تسد الروح الحربية مكانا كما سادت بلاد العرب ، لأن الحرب — بما تتيحه من غنيمة — كانت صناعة البدوى الوحيدة ، ولم يكن للعربي أن يعتمد إلا على نفسه ، فأحس بقوته واشتد لإحساسه بكرامة الإنسان . وإذ كان لا يعيش في يومه إلا ليومه ، من الصيد ، والسلب ، ونتاج إبله القليلة ، فقد اعتاد أن يستخف بالثروة ، وأن يوجد بكل ما يملك — ولا سيما وهو يعرف أيضاً أن كل ما يملكه معرض لأن تسلبه إياه يد ناهبة . ولم يكن ثمة ما يشتت عاطفته ، فركزها بتأمها — كما ركز أطماعه — حول نفسه وحول عائلته وحول حصانه وأسلحته . وهكذا كانت ثروة العربي هي شهرته وعائلته وحصانه وأسلحته .

أما عائلته فقد كان من واجبه أن يسهر عليها ، وأن يغسل بالدم أى عار يلحق بواحد من أبنائها أو أبناء عشيرته ، فإذا قضى وهو يؤدي ذلك الواجب ، انبرت سلالته — ولدا بعد ولد — لا تغمد سيفها حتى

تثار لدمه ويعلن الموقى رضاهم<sup>(١)</sup> .  
وأما أسلحته فإنها لم تكن لديه وسيلة عيش وضمان حق فحسب ،  
بل لقد كانت إلى جانب ذلك أيضاً أداة زينة ومرتعة ؛ فهو ينتشى  
باستخدامها في ساحة القتال وغمار المعارك ، ويتغنى بحب الرماح الطويلة  
المرنة والسنان اللامعة الناهلة :

« كان سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبيننا »

ولقد أحب العربي جواده بوجه خاص ، فدربه وهذبه وعلمه ،  
واتخذ منه رفيقا وفيئا وصديقا ذكياً .

ولما كان النضال من أجل الحياة يدفع العربي إلى تحسين أدواته  
وأسلحته وجياده ، فقد دفعه ذلك بطبيعة الحال إلى تحسين نفسه ،  
فحرص على أن يكون جديرا بما يقتنى من أسلحة كما تكون أسلحته  
جديرة به ، وأن يكون أهلا للجواد الكريم الذى يمتطيه . ومن هنا ساد  
الاتساق بين الجواد والأسلحة والفارس ، وغدا الجواد الكامل والأسلحة الكاملة  
وقفا على « الفارس » ، أى الرجل الكامل ، لأن الكمال يستدعى الكمال .  
ولما كان العرب جميعا متساوين ، فقد سعوا كلهم إلى التميز والتفرد  
بوفرة فضائلهم وتنوع مآثرهم ، وإلى أن يتفوق بعضهم على بعض بما يخلد  
مناقبهم ومفاخرهم . وانتهوا إلى توجيه جهودهم نحو غرض واحد ، وإلى

---

(١) كان العرب يعتقدون أن الرجل إذا قتل ولم يثار له ، خرج من رأسه نوع من  
البوم لا يمسك عن الصياح على قبره « اسقوى » حتى يثار له أهله ( شهاب الدين الأبهشى ) .

استخدام طاقهم فى سبيل غاية واحدة ، و إلى تركيز مطامعهم فى هدف واحد ألا وهو « حسن الذكر » عن طريق أفعال جليلة — لا تضارع — فى ميدان الخير . يقول المؤرخ الصفدى : « لم يكن للعرب من دواعى الفخر إلا السيف والقرى والفصاحة » ؛ فكان أن جرت فى بلاد العرب شبه مباراة لا آخر لها فى ميدان المروءة ، وعلو الهمة ، والكرم الخيالى . وتحت أنظار « الفتيات » — فارسات البادية الحسناوات — وتحت أنظار الشعراء العارفين بجمال الجرس والصادحين بقصائد الفخر ، انطلق الفرسان العرب طوال عدة قرون إلى ساحات البطولة . ولقد كانوا يهبون فى وقت واحد لصولة السلاح وجولة المروءة ، للتحدى فى السباق وفصاحة اللسان ، والمفاخرة بشرف الحسب والنسب ووقائع الجود والبذل . وكانت تلك المواقف تؤثر فى الحاضر والمستقبل ، فى الأحياء والأموات ؛ لأن فوز المتبارى كان ينعكس على قبيلته بأسرها مجدداً خالداً ، كما يلحق هوان الهزيمة كل من ينتمى إليه .

لقد كان العرب جميعاً شعباً من الشعراء والمقاتلين ، وقد قسموا حياتهم إلى شطرين : فشطرت للحرب ، وآخر للتجارة والصراع السلمى فكراً وشعراً . ومن تلقاء أنفسهم ، ودون تدخل أى سلطة — فما كانوا ليعترفوا بسلطة قط سوى سلطة ما ينطقون به من كلام — اتفق أفراد تلك القبائل الهائمة على وقف القتال فيما بينهم ، وقيام هدنة تدوم أربعة أشهر

في السنة<sup>(١)</sup> . ولم تكن بهم من حاجة - في سبيل المحافظة على هذا العهد الذي قطعه الجميع من أجل الصالح العام - إلى التهديد بالحرمان من كنيسة ، أو إلى حرس خاص كما حدث عند فرض « هدنة الرب »<sup>(٢)</sup> . وفي أثناء تلك الهدنة - التي يمتنعون فيها عن الاعتداء أو طلب الثأر - كانت تتعقد كل عام ولدة شهر ، سوق عكاظ المعروفة ، يهرع العرب إليها من كل حذب وصوب ويلتقي فيها السادة والتجار والشعراء كأنهم في مباراة تتناظر فيها الثروة والفضائل وبعد الصيت وجودة الشعر ، وثمة رجال ما زالت تتزف جراحهم ، ورجال يريدون ثأراً أو يخشون ثأراً ، يفرضون الصمت على بغضائهم<sup>(٣)</sup> . وكانوا يضعون أسلحتهم ، حين

---

(١) اعتمد المؤلف على ما جاء في كتاب كوسان دي برسفال: مقالات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، من أن الهدنة كانت لدى عرب الجاهلية أربعة أشهر يقفون فيها الأعمال العدائية مما أدى إلى تأمين التجارة في تلك الفترة وحال دون تفتاق بعض القبائل. والصحيح أن الهدنة كانت في العصر الجاهلي شهراً واحداً وهو المحرم، وقد جعلها الإسلام أربعة أشهر وأضاف إلى المحرم رجب وشعبان ورمضان . سورة التوبة ، ٣٥ : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم » . ( المترجم )

(٢) وقد ذهب « مجمع تولونج سنة ١٠٤١ » إلى أبعد من ذلك إذ فرض وقف القتال في أثناء الأعياد وأيام الأحاد والصوم وفي النصف الثاني من كل أسبوع . . . ولتنفيذ قرارات المجامع أنشئ في القرن الحادي عشر جمعية للسلام في كل منطقة يرأسها الأسقف ، وكان لها صندوقها ومحكمتها بل وجيش السلام التابع لها ( لافيس الجزء الثاني ص ٥٥ ) .

(٣) فرسنل : رسالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١ - ٣٣ .

وصولهم لدى الحكم المنوط به حفظ تلك الودائع النفيسة الخطرة ، ويفرغون  
زمننا لأنس السلام ومباهجه .

وهناك كانوا يستبدلون بالذهب والمر والمسك والبخور : الجلد  
المصنوع ، والسروج المحكمة ، والأقمشة الثمينة ، والدروع أو الجياد  
الكريمة؛ وهناك كانت تشيع الطرف المبتكرة وتذيع الأغاني وتصفو اللغة .  
ولقد كانت تضرب في هذا السوق خيمة عظيمة يتصدرها أعظم  
الشعراء منزلة ويجلس فيها من الشعراء مجلس القاضي المتصرف ؛ ينصت  
إلى أشعارهم ويصدر حكمه فيها . ومن ثم تنقش أجود القصائد على  
نسج رقيق من القنب أو البردى وتعلق على أستار الكعبة المقدسة .

وهناك أيضاً كان يأتي المرء ساعياً وراء ما يخلد ذكره ، فيعلن  
المبرزون على الملأ مآثرهم أو يستعينون في ذلك بشعراء يجزلون لهم العطاء ،  
فن قائل يردد : « أعلن أن فلانا هو أشجع أو أسخى أو أعظم العرب »  
فينبرى له آخر قائلاً : « بل إن فلانا يفوقه فصاحة وحكمة » . . . وهكذا  
يتجادلون ، كل يدعم قوله بالأدلة ، والجمهور يصدر حكمه مسترشداً  
بتلك الأمثلة الكريمة التي تضرب أمامه .

وهكذا ولدت المروءة في صحارى العرب وعظم فيها السمو الخلقى . .  
أولست تلك هي خلاصة الفروسية ؟ أفليست الفروسية انطلاقا  
صوب المثل الأعلى وسباقا كريما نحو الكمال ؟ . . .

على أن هذه الفروسية العربية لم تكن مزية مقصورة على طبقة أو طائفة

دون أخرى ، بل كانت هي أسلوب الحياة الذي عم شعباً بأسره . ولم يطلع بها عليهم دين ، ولم يأمر باتباعها سلطان ، أو يوضع لرعايتها قانون ، ولكن ميلاً طبيعياً إلى الخير هو الذي يكفل لها أن تتبوأ قلوب القوم . وإن هدف هذا الكتاب هو تعريف الجمهور بأخلاق العرب . فمن الخسارة إذن ، وقد أخذت الشعوب تسمى إلى أن يتصل بعضها ببعض وأن يفهم بعضها بعضاً ، أن تظل فعال العرب ومروءتهم مجهولة لدى السواد الأعظم . أليست تلك العواطف النبيلة المرهفة التي تفتحت في الشرق إبان أقدم العصور إنما تنتمي إلى الإنسانية؟<sup>(١)</sup> أولاً يزال الرجل الفاضل يحس بارتياح حقيقي عندما يلاحظ - في جميع الأزمنة وفي جميع البلاد - أن الشر في صراعه ضد الخير ، لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة دائماً ، وأن الأثرة والحسنة في كل مكان قد نافحهما الإيثار وروح التضحية ؟

---

(١) ليس أبناء آدم إلا أسرة واحدة تسعى إلى نفس الغرض . وإن الأحداث التي عرضت لأمم تنامت عنا في المكان والزمان - هذه الأحداث التي ما كانت في الماضي لتوقظ فينا غير غريزة حب الاستطلاع ، إنما تهمننا اليوم كأنما هي أشياء تخصنا وقد ألمت بأجدادنا . ولقد كان تعرض شعب للفناء عملاً مجيداً من أجل تحقيق حرية لنا ، أو حقيقة أو رأى أو كشف ، وكان تعرض فرد لمعاناة كل الآلام عملاً مجيداً أيضاً من أجل إضافة ولو مثقال ذرة من ذهب لخير الإنسانية عامة . (شاتوبريان : دراسات تاريخية) .